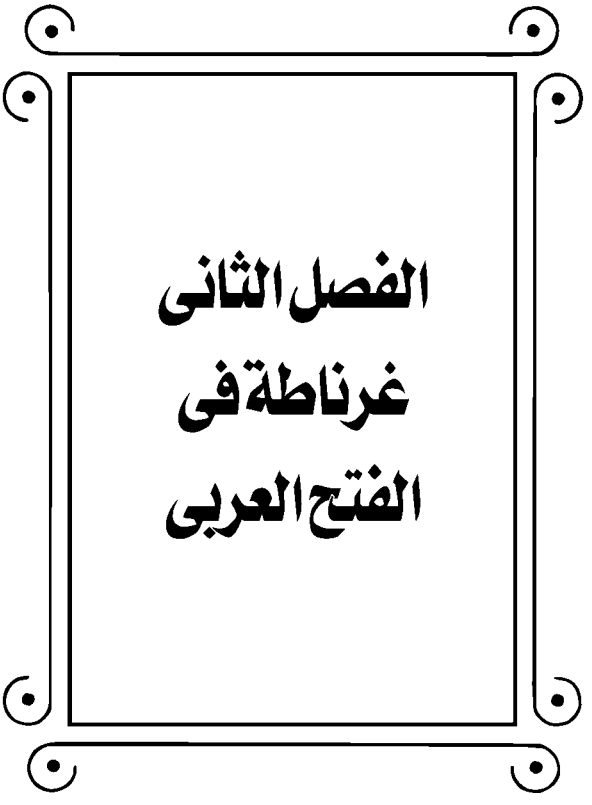

الفصل الثانى
غرناطة فى
الفتح العربى

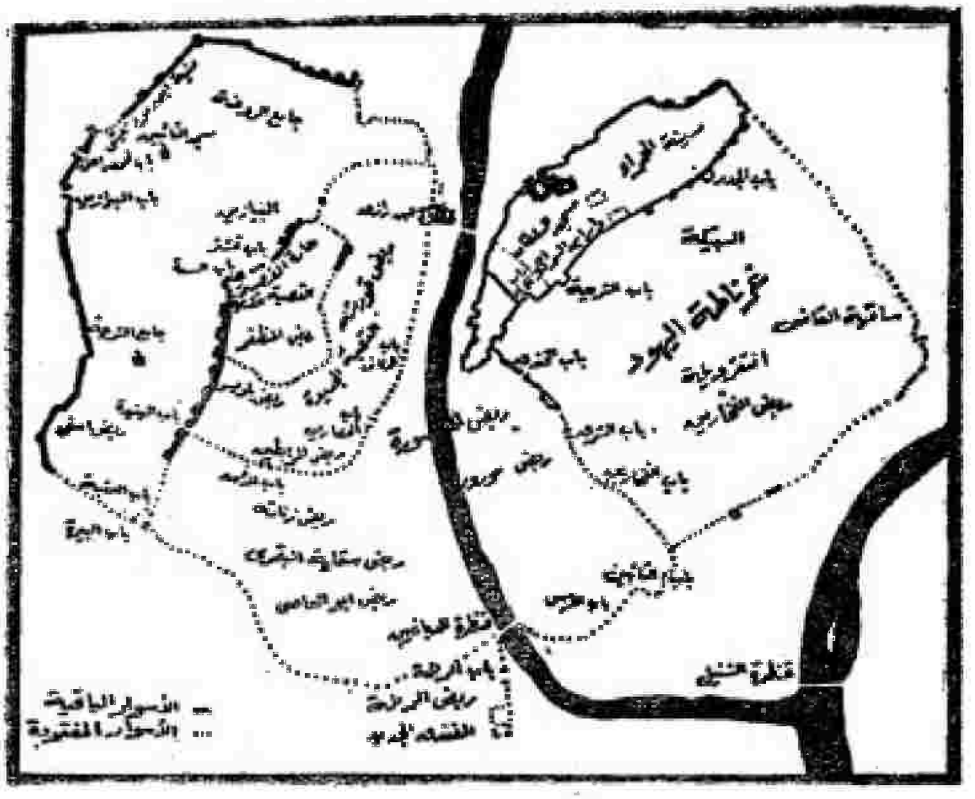

غرناطة فى العصر الاسلامى

لم تصل مدينة غـرناطة إلى مكانتهـا التى شهرت بهـا كعاصـمة لدولة الأندلس إلا فى أوائل القرن الخامس الهجـرى (الحادى عشر الميلادى)، وذلك حينما أدرك بنو زيرى الصنهاجيون (وكـانوا يحكمون فى قلعة بنى حماد، ثم فى بجاية) أن سلطان غرناطة قد بدأ يهوى. فاتصلوا بوزير هشام الثانى، عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر يعـرضون عليه خدماتهم، فكان الجواب مرضيًا. وسرعان ما رحلوا مع جماعة من رجال قبيلتهم وأعوانهم تحت زعامة زاوى بن زيرى. ويشاء حـسن الطالع أن تصبح هذه الجـماعة بـعد قليل أهم

طوائف الجيش البربرى الذى أنشأه بنو عامر. ولما مات عبد الرحمن سنشول، ناصروا قضية زعيم جماعة البربر فى الأندلس - وهو سليمان المستعين، وعملوا على أن يتولى الخلافة. وقابل سليمان هذا الجميل بأن أقطع رؤساء أتباعه الإقطاعات الكبيرة. وكان من أهمها إقطاع ناحية البيرة[1]. وقد اشتمل على الأراضى الغنية فى وادى نهر شنيل وكذلك على الهضاب الصخرية المجاورة.

اتفق معظم المؤرخين وجغرافيى الأندلسيين على جمال غرناطة وخصوبة سهولها، وكان بنو زيرى فى طليعة الذين أدركوا أهمية موقعها الخصيب، ولا سيما أميرهم «عبد الله». فلا عجب أن يتعاون الأندلسين والبربر على تشييد وإحياء مدينة غرناطة، كل يبنى له مسكنًا، ثم آلت البيرة إلى الخراب والإهمال.

لنرجع قليلاً إلى أيام الفتح الإسلامى الأول للأندلس. فقد ندب القائد موسى بن نصير ابنه عبد العزيز لفتح البلاد التى لم تخضع بعد له فى شرق الأندلس، وليفانت. فلما كان عبد العزيز فى طريقه لإخضاع إمارة مرسية (Orihuela) احتل مالقة وقطاع البيرة - غرناطة، وفى أعقاب ذلك تولى أبو الخطار الحسام بن الضرار إمارة القطاع (١٢٥هـ = ٧٤٣م). وأقطعه إلى أجناد دمشق السوريين. وكان شيوخ هؤلاء من المعاضدين للأمويين الذين عاونوا الأمير عبد الرحمن الأول حينما نزل بأرض الأندلس. وقد شاهدت كورة البيرة آنذاك النضال الدموى الذى وقع بين المولدين المخلصين للحكومة المركزية

(١) عرفت بهذا الاسم لأنها استمدته من المدينة القديمة البيرس. ثم احتلت جارتها غرناطة أهمية المدينة القديمة، وقد بدأت ضاحية يسكنها اليهود..

الأندلسية وبين العـرب بزعامة سوار بن حمدون. وكـان هذا فى أثناء حصار منافسيه قصر الحمراء، وقد استطاع الخـروج من قاعدته بحركة جريئة، وأجبر الأندلسيين على الفرار عقب معركـة عرفت باسم «واقعة المدينة». ومن ثم لجأ الجنود المهزومـون فى خدمـة ابن حفصـون، الذى جمع شمـل بعض القوات وقصد إلى البيـرة ليستأنف النزال فى سهل شنيل، ودارت عـدة معارك مظفرة وفاشلة حتى فقد الأمل فى الانتصار على أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث.

استـمرت المنطقة تعـرف بالبيرة أعـوامًا كثيـرة لأهميتـها المتفـوقة على غرناطة. وكانت تلك حـتى القرن التاسع الميلادى لا تتجاوز قـرية كبيرة ذات أسوار تقع على الشاطئ الأيمن لنهر درو عند التقـائه بنهر شنيل. وكان غالبية سكانها من اليـهود، وأقليتهم من المسلمين وليـس فيها أحد من المـسحيين - ولذلك عرفت بغرناطة اليهود. وكان أمامها - وعلى نشز صخرى يشرف على الضفة الغربية درو، قلعة قديمة سـميت بالحمراء، نظرًا لتشابه لون التربة التى أحاطت بها. وهذه الحمراء هى التى أصبحت بعد قرون قاعدة ملك النصريين آخر سلالة الملوك العرب الذين حكموا الأندلس.

غرناطة تقف على قدميها:

يرجع مولد غـرناطة الحقـيقى إلى القـرن الحادى عشـر الميلادى حـينما تصدعت وحدة الأنـدلس على أيام ملوك الطوائف والأمراء. ومن بين هؤلاء كان قائد من رجال المغرب اسمه زيرى بن مـناد. كان قد أتى مع نفر كبير من قومه الصنهاجـيين ثم وقعت الفتنة الكبرى أوائل القرن الحـادى عشر. وقامت الحرب الأهلـية بين قادة جـيوش الخـلافة وبعـد أهوال لجأ زيرى وابن أخـيه حبوس إلى غرناطة واتخذها عاصمـة له، فأعاد بناء أسوارها وأبراجها واتخذ

لنفسه ورجاله فيها قصوراً ومساجد[1]. وكانت غرناطة بنى زيرى تقوم فى السهل الفسيح الممتد بين تلى غرناطة. تل الحمراء شرقًا، وتل البياسين غربًا. ولا يزال جزء من أسوار هذه المدينة العتيقة باقيًا وهو الجزء الذى يشتمل اليوم على باب البيرة. ثم باب المنية (ويعرف اليوم بباب منايتة) ثم بوابة الموازين. وحينما تقابل كنيسة السفادور فأنت فى مكان مسجد غرناطة القديم. كانت أسوار غرناطة فى تلك الأيام تصل إلى سفح الساكرومونتى (الجبل المقدس) وهو جزء من تل البياسين، ومن هناك كان السور ينحرف شرقًا مارًا ببيت عربى يعرف ببيت الجباس الذى تقوم فيه اليوم مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة.. وبعد سير السور قليلاً يتسلق السور سفح تلك الحمراء حتى يصل إلى الهضبة التى تقوم عليها قصور الحمراء اليوم. وعلى هذه الهضبة وضع بنو زيرى أساس تحصينات الحمراء التى ستصل إلى ذروتها بفضل بنى زيرى.. وخلف هذه الأسوار قامت غرناطة العتيقة التى يرجع الفضل فى إنشائها إلى اثنين من أمراء بنى زيرى الصنهاجيين، هما حبوس بن ماكن (١٠١٩ - ١٠٣٨)، وباديس بن حبوس (١٠٣٨ - ١٠٧٣). ولا تزال أطلال قصور بنى زيرى قائمة إلى اليوم بالقرب من دار الجباس حيث تقوم بقايا بعض دور عربية وبقايا الحمام الصغير (El Banuelo).

كانت أهم أحداث غرناطة أثناء حكم بنى زيرى: حصار الخليفة المرتضى لها لطرد الزيريين منها بيد أنه منى بهزيمة منكرة واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى قادش. وبعد أن تحقق فوز الزيريين غير المنتظر، دعمت الأسرة أحوالها، ولا سيما على أيام إمارتى حبوس وباديس بمؤازرة الوزيرين اليهوديين صمويل وابنه يوسف بن نجر الله.

(١) حسين مؤنس: غرناطة. مجلة العربى، العدد ٨٩، أبريل ١٩٦٦، ص ٧٥ - ٩٨.

وكان الأمير باديس قد بلغ من العمر عتيًا، وزادته الأحداث تجاربًا وخبرة، وكان يحس دومًا أن هناك ما يهدد أمن إمارته، فبذل الكثير من الأموال لدعم أسوار قصبة غرناطة لتكون فى مأمن من هجوم أعدائه حينما يتربصون الفرص: أو رعاياه المكبوتين عندما يرفعون راية العصيان ضد أميرهم. والشيء الذى كان يجول بخاطره، أن يمتنع داخل القصبة ويدافع رجاله عنها حتى يستطيع الفرار ناجيًا بنفسه إلى أفريقيا.

غرناطة المرابطين:

وهنا حادث آخر يتصل بغرناطة على أيام آخر حكام الزيين: عبد الله بن بلكين حفيد باديس الذى يدأ حكمه وهو فى سن الطفولة. وما كاد يصل إلى سن الشباب حتى بدأت الدسائس والمؤامرات يدبرها رجاله ضده، بينما تتوالى الحروب بينه وبين منافسيه من الأمراء المسلمين المجاورين، أو من الملوك النصارى. ولم ينج فى نهاية تلك الأخطار المشتعلة فى داخل ملكه وخارجها من عداوة المرابطين الذين قدموا إلى الأندلس بدعوة من بعض أمراء الطوائف. فأخذ يشيد الحصون ويدعم الأبراج، ويقوى الأسوار المتصلة بقصبة غرناطة لكى يرد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين. ولكن ما كاد هؤلاء يصلون إلى خارج أسوار المدينة حتى نصحه الوزراء وأمه أن يقلع عن المقاومة فاستسلم لرأيهم واتضح جبنه حينما خرج من القصبة عن رأس رجاله واستقبل يوسف بن تاشفين، وأمر بفتح أبواب غرناطة، ثم قدم له الكنوز التى احتوتها القصبة هدية للأمير الفاتح! وكان ذلك فى عام ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م، وأخذ عبد الله أسيرًا إلى أغمات فى المغرب، فانتهى ملك بنى زيرى من غرناطة وأصبحت المدينة منذ ذلك الوقت مع إقليمها تكون جزءًا

هامًا من أمـلاك المرابطين فى الأندلس شأنهـا شأن غيـرها من مناطق إسبـانيا الجنوبية وبقـيت المدينة تحت ولايتهم حتى ٥٥١هـ - ١١٦٦م حـينما آلت إلى حكم الموحـدين. وفى ظل المرابطين كـبـرت غرناطة وازداد عـمـرانها حـتى أصبحت فى أيامهم والموحدين من بعدهم حتى القرن الثالث عشر الميلادى من أهم وأكبـر مدن الأندلس. فـاتخذها الأميـر أبو الطاهر تميم بن يوسف والى البلاد زمن شقيقه الأمير على بن يوسف مقرًا له.

كان أول حكام غـرناطة المرابطين أبا محـمد عبـد العزيز وخلفه الأمـير يحيى بن وسـينو من أقرباء يوسف بن تاشـفين وجاء من بعـده أبو الحسن بن الحجيج الذى هاجمه ألفونسو السادس فى مدينا شيللى وانتصر عليه واستشهد أبو الحسن فى المعـركة وتولى الحكم بعد شـقيقـه أبو الحسن وهو محـمد بن الحـجيج الذى جـاء على رأس قوات غـرناطة لنجـدة والى أشبـيلية وكـانت مقاطعته قد هددها مرة أخرى ألفونسو السادس، وعلى مقربة من أشبيلية عند المقاطع أجبر على التقهقر بعد أن تحمل خسائر فادحة. وفى العام التالى يقابلنا أبو بكر بن يوسف فى تولية زعـامة المرابطين فلم يساعد أهل غـرناطة وقبض عليـه وأرسل إلى مـراكش. وفى أثر تلك المقـاومـة الفـاشلة جـاء على إلى الأندلس وبرفقـته شقـيقه الأكبـر أبو الطاهر تميم لينقضـيا على أثر للمقـاومة الفاشلة، وكان قـد عين شقيقه تميم بن يوسف والـيًا على غرناطة. وفى هذه الفترة لعبت غرناطة دورًا هامًا خلال الحملة التى بدأها ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون ضد أمـلاك المسلمين فى عام ١١٢٥م، واستمرت خمـسة عشر شهـرًا تمكن خلالها بمعاونة نـزلاء غرناطة من المستعـمرين[1] أن ينشر الذعر

(١) د. محمد توفيق بلبع: غرناطة وقصر الحـمراء. المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٦ عام ١٩٦٩، ص ٦٧ - ١٠٠.

والخراب فى أملاك المسلمين، كـما تكن من مهاجمة غـرناطة وضرب الحصار عليها وكاد يقتـحمها لولا قوة تحصيناتها وشجـاعة المدافعين عنها والمدد الذى وصلهم من المغرب، مما اضطر المهاجمين إلى رفع الحصـار ومتابعة الحملة فى المناطق الأخرى الجنوبيـة، حتى وصلت جيوشهم إلى مـدينة أرينسول جنوبى غرناطة وعندها نشبت مـعركة كبيـرة بين قوات ألفونسو وجيـوش الأمير تميم التى كانت تتعـقبه[1] إلا أن ملك أراجون انتزع النصـر فى النهاية من أعدائه الذين الهتـهم الغنائم بعد تفـوقهم فى الضـربة الأولى (مارس سنة ١١٢٦). وفى أعقاب تلك الهزيمة أعفى تميم من منصبه فى غرناطة وخلفه أبو عمر عنا له أكبر أحفاد يوسف بن تاشفين وكان واليًا على فاس.

ولم يستـقر أبو عمر طويلاً فى عـمله فقد أقـاله على فى مايو ١١٢٨م وأجبر على العودة إلى مراكش. وكان والى غرناطة الجديد أبا حفص عمر بن على بن يوسف الذى خلع بعد أربعة أشهر... وكان آخر ولاة المرابطين على غرناطة على بن أبى بكر بن على ابن شقيقة يوسف بن تاشفين.

استمر اتساع العمران فى غرناطة فى زمن الموحدين، فقد بلغت مساحة المدينة المسورة فى القـرنين الحادى عشـر والثانى عشـر للميلاد مـا يقرب من خمسة وسبعين هكتارًا، وكانت تضم أكثر من أربعة آلاف وأربعمائة دار، يقيم فيها أكـثر من ستة وعشرين ألفًا وأربعـمائة نسمة[2].. ثم جاءت الأيام التى اشتد فيها الهجوم المسـيحى على الموحدين فلم يستطيعوا عمل شىء.. والأثر الوحيـد الباقى فى غرناطة من عـصرهم، هو قصـر صغير فى أقـصى غرب

(١) المستعربون هم الإسبان المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام وتكلموا اللغة العربية.

(٢) Torres Balbas: A; Andalus, Vol, XXI, fasc. I, pp. r39 - r40.

المدينة يسمونه اليوم قصر نهر شنيل واسمه الأصلى قصر السيد إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن[1] الذى ولاه الخليفة الموحدى المستنصر حكومة غرناطة سنة ١٢١٨/ ١٩م. فشرع فى بناء هذا القصر ثم شيد فى مواجهته رباطًا للعبادة، وقد حول هذا الرباط إلى دير نصرانى باسم دير ومصلى القديس سباستيان: وقد استعمل القصر بعد ذلك دار ضيافة.

غرناطة بنى الأحمر (بنى نصر):

لا شك أن عظمة غرناطة وازدهارها من الناحية الفنية ترجع إلى بنى الأحمر، فمع قدوم هذه الأسرة ومؤسسها محمد بن الأحمر، استقر فيها حكمهم من عام ٦٣٥هـ - ١٢٣٨م حتى سقطت المدينة العظيمة فى قبضة الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابلا فى عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م وكانت فى خلال تلك المدة قاعدة آخر حكومة إسلامية فى إسبانيا. فإذا كانت قرطبة قد نالت قصب السبق كعاصمة للأمويين بالأندلس لمدة تزيد على القرنين ونصف القرن، وتبعتها أشبيلية لفترة أخرى تجاوزت المائة والستين عاما كحاضرة للبلاد زمن كل من المرابطين والموحدين فإن مدينة غرناطة استمرت من بعدها عاصمة لمملكة بنى نصر لفترة تتعدى المائتين والستين سنة[2].

أصبحت غرناطة من سنة ١٢٣٨ معقل الإسلام فى شبه الجزيرة فخف الناس إليها ألوفًا من المدن التى استولى عليها المسيحيون أو التى كانت مهددة بالسقوط. وفى أعوام قليلة عمر الناس كل تلك البياسين وانتشروا على السفح

(١) د. حسين مؤنس: غرناطة، مجلة العربى.

(٢) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٧٥.

الشرقى لهـذا التل الذى كان يعرف بمدرج السـبيكة وفى خلال خـمسين سنة تضاعفت أربع مرات.

فمـاذا فعل بنو نصـر فى غرناطة؟ لنبـدأ بأن نتعرف أولاً عـلى مؤسس مملكة غرناطة.. فهـو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابـن الأحمر. كان قوى الشخصيـة عالى الهمة، له مقدرة فائقة على مـجابهة الأحداث والإفادة من الأخطار. دخل أسلافه الأندلس مع جيوش الفتح العـربى واستقر مقامهم عند حصن أرجونة إلى الشمال من غرناطة ثم أخذت أسرة ابن نصر منذ ذلك الحين تتكاثر وتزداد وتقـوى حتى آلت زعامـتها إلى مـحمـد هذا الذى عرف بالشيخ.

حينما تدهور نـفوذ الموحدين فى الأندلس فى بداية القرن الثـالث عشر الميلادى ولا سيما بعد اقتصار ألـفونسو الثامن ملك قشتالة وحلفائه من ملوك إسبانيا المسحـيين على محمد الناصر الخليفة الموحدى فى مـعركة العقاب سنة ٦٠٩هـ - يوليو ١٢١٢م[١] وجد عدد كـبير من زعماء الأنـدلس فرصة لشق عصا الطاعـة على الموحدين، فثاروا فى مناطق شتى بالبـلاد وحاولوا السيطرة على ما تحت أيديهم من أملاك الموحدين والاستقلال بها، وكان من بين هؤلاء محمد بن يوسف بن نصر، فنصـبه أهل أرجونة مسقط رأسه فى سنة ١٢٣٢م واليًا عليهم، ثم دخلت فى حوزته فى السنة التاليـة مدينة جيان. ولما قتل أبو عـبد الله مـحـمد بن يوسف بن هود فـى سنة ١٢٣٨م الذى ثار بدوره على الموحدين فى مدينة مرسية واتخذها عاصمة لمملكته فى شرق الأندلس. خشى أهل غرناطة بعد مقـتل أميرهم ابن هود على مدينتهم من الجـيوش النصرانية

(١) A. Huici Miranda: Las Grandes Batallas de la reconquista.

التى كانت تضغط بقـوة على أملاك المسلمين للاستيلاء عليـها، فاتصلوا بابن الأحمـر أثناء وجوده فى جـيان وبعـثوا إليه بيـعتـهم والدخول فى طاعـته: فاسـتجاب لرغـبتهم وانـتقل إلى غرناطة واتخـذها منذ ذلك الحين مقـامًا له وحاضرة لمملكته الجديدة[1].

وما وافت سنة ١٢٣٩م حـتى استـقر رأى محـمد بن نصـر على إنشاء حصن يحتمى به. وبعد أن استكشف بنفسه المنطقة المحيطة بالمدينة، استقر فى نهاية الأمر فى منطقـة السبيكة فى الجانب الشمالى الشـرقى من مدينة غرناطة حيث كانت تـوجد أطلال إحدى القلاع القديمة. ووضع ابـن الأحمر فى هذا الموضع المرتفع أسـاس حصنه الجـديد «قصـبة الحـمراء» ثم أمـر بإقامـة البناء والعمل عـلى إتمامه بسرعـة، وفى الوقت نفسـه عمل على تدبـير الماء اللازم لقصره، فأمر بعـمل سد على نهر حدرة (Darro) لتؤخذ منه المياه وترتفع إلى الحصن بوساطة سواقى.

كان الحـاكم الجديد يوسع رقـعة مملكتـه على حسـاب المدن والإمارات المجاورة. فـضم مدينتى مـالقة والمرية وأحوازهمـا وشملت بعـد ذلك مدينة لورقة شرقًا. وواصل محمد بن يوسف طـوال فترة حكمه التى امتدت إلى ما يقرب من ست وثلاثين سـنة بعد دخول غـرناطة (١٢٣٨ - ١٢٧٣م)، يقاتل لتحقيق أهدافـه فى تأسيس دولة قوية عظيمة، مما أرغمـه على خوض معارك كثـيرة وخاصة ضـد بنى مرين أصحاب المغـرب للاستيلاء على أمـلاكهم فى المناطق الجنوبية من إسبانيا فانتصر عـليهم فى معارك كثيرة وبذلك دعم مملكته وذاعت شهرته فيما جـاوره من الأقاليم حتى وافاها الأجل فى عام ١٢٧٣م،

(١) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٧٧.

فخلفه ابنه محمد الثانى الفيه (١٢٧٣ - ١٣٠٢م)، فاستكمل بناء القصبة (القلعة)، وأتم جانبًا كبيرًا من أسوار الحمراء.

تولى أمر المملكة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الثالث (١٣٠٢ - ١٣٠٨م) وكان من أعظم أهل بيته صيتًا وهمة: بيد أنه كان ظالمًا وقاسيًا فتآمر عليه أهل غرناطة وأقصوه عن الحكم ونصبوا شقيقه أبى الجيوش نصر فدبرت له مؤامرة أودت بحياته حيث مات غريقًا عام ١٣١٠م بعد سنتين من خلعه. ويرجع الفضل إليه فى بناء المسجد الجامع بالحمراء وتزيينه وتجميله، وقد ظل هذا المسجد قائمًا حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر حينما أزيل فى زمن الإمبراطور فيليب الثانى ابن شارلمان، وبنى مكانه كنيسة سانت ماريا الحالية، كما شيد الأمير محمد الثالث حمامًا بإزاء المسجد وجعله وقفًا عليه، وقد تهدم هذا الحمام وظلت أطلاله فى مكانه أثرًا باقيًا تشهد على وجوده[١].

تعاقب على حكم غرناطة بعد هؤلاء الثلاثة الأول ثمانية عشر سلطانًا (راجع الملحق) ساهم معظمهم فى إضافة وتجميل مبانى الحمراء وبساتينها وخمائلها وقاعاتها، فأبدعوا فى زخرفها وزينتها، حتى أصبحت صورة صادقة لألوان الجمال وعنوانًا للنعم الموفورة التى عاش فيها ملوك غرناطة.

أهم ما نسجله عن امتداد المدينة ما ذكره العلامة حسين مؤنس فى بحثه الممتع الذى ننقل منه:

كان السور الذى بنوه (بنو نصر) يحيط بتلى البياسين والحمراء ويسير مع السور الخارجى القديم نحو الجنوب ثم ينحرف شرقًا ويسير محاذيًا المجرى

(١) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٨٠.

القديم لنهر حدارة مارًا بميدان البـاب الملكى وينتهى عند مجرى نهر شنيل فى الشرق. كان هذا السور الضخم مدعمًـا بأبراج صغيرة تعرف بالبرانيات، ولا تزال بعض بقاياه قائمة. وكان الشارع الرئيسى للبلد هو نفس الشارع الرئيسى الحـالى المسـمى باسم الملكـين الكاثوليين، وكـانت الأسـواق تقع إلى غـرب الشارع: فـيما يعرف اليـوم بالقيسارية وحـول المسجد الجامع الذى كـان يقوم مكان الكاتدرائية اليوم، وكـانت الأسواق تمتد إلى مبانى الجامـعة الحالية. هنا أيضًا كانت الأحياء الشعبية وكانت تمتد حتى تل البياسين وتشمله.

والجانب الشرقى من غرناطة اشتمـل على أحياء الأمراء والأغنياء وكانوا يسكنون دورًا فسيحة تحيط بها الحدائق والبساتين. وقد تحدث كثيرًا لسان الدين ابن الخطيب وهو الطبيب والفيلسوف والكاتب والشاعر - فى كتابه «الإحاطة» عن العظمة والتـقدم اللذين بلغتـهما غرناطة فـأعطانا صورة لعصـره انطبعت مظاهرها على حـياة الناس وطرق مـعيشـتهم فى جـميع النواحى السـياسـية والحربية والدينيـة والثقافية والاجتـماعية، وكان الرخاء والثـراء والترف محور هذه الحياة التى بلغت من البذخ حدًا بعيدًا.

نهاية غرناطة الإسلامية:

وبالرغم من كل هذه النعـمة والـغنى والقوة، فـإن غرناطة لم تسـتمـر طويلاً بنعم الحياة الهادئة لأن حـرب الاسترداد الإسبانية التى تزعمـتها مملكتا قشـتالة وأراجون أخـذت تشتد على أطراف مملكة غـرناطة، مما أجبر جـميع مسلمى الأندلس إلى مغـادرة مدنهم واللجوء إلى أحواز العـاصمة وفى نفس لاوقت تنازع على النفوذ والـسلطان أفراد البيت المالك، مما دفع بعـضهم إلى طلب العون والمساندة من الممالك المسيحية لتحقيق أطماعهم الشخصية. لذلك

اضطربت أحوال البلاد وانحسرت حدود المملكة الواسعة فى آخر الأمر داخل أسوار عاصمتها، فضربت جيوش الملكيين المسيحيين عليها حصارًا محكمًا فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ - أبريل سنة ١٤٩١م، وكلما اشتد الحصار زادت نار الفتنة اشتعالاً: ووجد اليأس طريقه إلى قلوب الغرناطيين نتيجة للجوع والغلاء. وفى النهاية تآمر السلطان أبو عبد الله محمد بن على بنفسه على تسليم المدينة وقلعتها الحصينة، فى مقابل شروط معينة أهمها: تأمين السكان وأموالهم ومتاعهم - إطلاق جميع الأسرى من أهل غرناطة المسلمين - ترك الحرية للمسلمين لمزاولة شعائرهم الدينية فى المساجد - عدم التعرض لهم إذا رغبوا فى العبور إلى المغرب - إلى غير ذلك من الشروط.

أرسلت هذه الشروط إلى ملك قشتالة فوافق عليها وطلب تقديم خمسمائة من كبار رجال المسلمين كرهائن، فأجيب إلى طلبه. فتقدمت قوة مسيحية إلى قصر الحمراء وتسللت إلى داخله دون مقاومة. فتلقى السلطان أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) قائدها فى برج قماش وسلمه مفتاح القلعة فقط دون مفتاح المدينة، فعاد القائد إلى معسكر سيده الذى كان يبعد قرابة اثنى عشر كيلو مترًا عن أسوار غرناطة وصحبه والملكة إيزابيلا إلى الحمراء فدخلها فرناندوا وإيزابيلا مع جيوشهما فى ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ - ٢ يناير ١٤٩٢م، فأقيمت مراسم احتفال تسليم المدينة ورفع العلم المسيحى والصليب بعد أن أنزل العلم الغرناطى فوق برج الحراسة الذى يتوسط مبنى الفصبة القديمة باعتباره أكبر وأعلى أبراج الحمراء[1].

(١) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٨٠.

هكذا انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الإسلامية بالأندلس بعد أن ظلت ما يقرب من ثمانية قرون خاضعة للمسلمين الذين سطروا خلالها سجلاً حافلاً بالمجد والرفعة فى جميع ألوان الحياة، مما يعد فخارًا للإسبانيين.

لقد أحب عرب الأندلس مدينة غرناطة وتفاخروا كثيرًا بها، ويذكر المقرى فى تاريخه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» - أن أحدهم قابل شنيل «مهر المدينة»، بألف نيل، فيقال:

وما لمصر تفخر بنيلها

وألف منه فى شنيلها

وتجدر الإشارة هنا أن حرف «ش» بالذات يدل على العدد ١٠٠٠ فى لهجة عرب المغرب!.

وبعد سبع سنوات نقض الملكان شروط التسليم، وأجبروا المسلمين الذين ظلوا فى مدينتهم على اعتناق النصرانية مما دفع أهل البيازين للثورة على حكامهم، ولكنهم أخذوا بقسوة شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين، مما اضطرهم إلى الفرار للمغرب حيث نزلوا فاس وغيرها من المدن حتى خلت الأندلس من المسلمين! وفى الوقت نفسه ارتد المستعربون عن الإسلام وعادوا إلى المسيحية وعندما غادر غرناطة أبو عبد الله من باب القدور إلى منفاه، وأفل مجد أسرة بنى نصر أغلق الباب بأمر من الملك الإسبانى الكاثوليكى وملكته، بعد أن أمرا أن يبقى الباب مغلقًا دائمًا.

ومع ذلك فإن أثر حضارة العرب والإسلام ما زالت باقية فى جميع أنحاء إسبانيا تشهد بفضل هذا الدين السمح وحضارته الخالدة على بقعة فسيحة فى غرب أوروبا.